

وَالْقَبِيلَةُ لَا تُدَمُّ، فَهِيَ قَدَرٌ كَوْنِي، فَاللَّهُ تَعَالَى هَكَذَا خَلَقَ عِبَادَهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣). وَيَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِحْدَى خُطْبِهِ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَأَنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى" أخرجه أحمد. الْقَبِيلَةُ تَصْنَعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ نَوْعًا مِنَ الْوَحْدَةِ بَيْنَ أَبْنَائِهَا، فَإِذَا ارْتَقَى هَذَا الْفَهْمُ الْوَحْدَوِيُّ الْقَبِيلِيُّ إِلَى وَحْدَةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَ ذَلِكَ تَهْنِئَةً لِلْوَحْدَةِ الْمُسْلِمِينَ وَهِيَ غَايَةُ مَنْشُودَةٍ. وَمِنْ الضَّرُورِيِّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْوَحْدَةُ الْقَبِيلَةُ دَائِرَةً فِي فَلَكَ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْكُبْرَى وَمُعْذِةً لَهَا، وَعِنْدَ أَيِّ تَعَارُضٍ بَيْنَ الْوَحْدَتَيْنِ تُقَدَّمُ الْوَحْدَةُ الْكُبْرَى (وَهِيَ وَحْدَةُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ) وَمَصَالِحُهَا عَلَى الْوَحْدَةِ الصُّغْرَى وَهِيَ وَحْدَةُ الْقَبِيلَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا كَبِيرًا بَيْنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَى الْقَبِيلَةِ وَبَيْنَ التَّعَصُّبِ لَهَا. فَالْإِسْلَامُ يَبْغِضُ الْعَصَبِيَّةَ الْقَبِيلِيَّةَ وَيُحَارِبُ جُذُورَهَا، بَلْ يَنْصَحُ النَّاسَ أَنْ يَرْجِعُوا فِي تَمَازِيهِمْ إِلَى مَعَايِيرِ التَّقْوَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهَمَّا أَصْلُ الْكَرَامَةِ وَسَبَبُ الِارْتِفَاعِ، وَيَوْسَعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَخَيَّلَ مَوْقِفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يَتَجَهَّ مُهْرُولًا إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ تَشَاجَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ لِيَقُولَهَا بِهِمْ عَالِيَةً مُدْوِيَةً: " مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُنْتَهَى مُتَفَقٌ عَلَيْهِ. إِنَّهَا الْمُسَارَعَةُ الْحَثِيئَةُ إِلَى وَادِ رُوحِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مَهْدِهَا وَصَرَخَتِهَا الْأُولَى، وَهَكَذَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَحَاوَلُ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ الْمُرْضِيَّةُ الْخَطِيرَةُ أَنْ تُطْلُبُ بِرَأْسِهَا، وَمِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ تَقِيمَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ لِلْقَبِيلَةِ مِيزَانًا تُوَالِي وَتُخَاصِمُ عَلَيْهِ، وَتَحْتَقِرَ وَتُرَكِّي عَلَيْهِ، وَتُقَاتِلَ وَتُصَالِحَ عَلَيْهِ، وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ عَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدُ غَزِيَّةٌ أَرَشُدُ وَمِنْ أخطر السَّلَاطَاتِ الَّتِي تَتَوَلَّدُ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الْقَبِيلِيَّةِ أَيْضًا تَفْدِيمُ الْوَلَاءِ وَالتَّنَاصُرِ الْقَائِمِ عَلَى أُسَاسِ الْقَبِيلَةِ عَلَى الْوَلَاءِ الْقَائِمِ عَلَى الدِّينِ، وَلَقَدْ حَارَبَ الصَّحَابَةُ آبَاءَهُمُ الْمُشْرِكِينَ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِخَاهُ الدِّينِ مُقَدَّمٌ عَلَى إِخَاءِ النِّسَبِ، فَمَتَى مَا انْتَفَتَتْ هَذِهِ السَّائِبَاتُ عَنِ الْقَبِيلَةِ أَثْمَرَتْ خَيْرًا عَلَى الْمُجْتَمَعِ، فَزَادَتْ بِهَا وَحْدَتَهُ وَقَوِيَّتْ بِهَا شَوْكَتَهُ، وَصَلَحَ بِهَا أَمْرُهُ، وَمَتَى اقْتَرَنْتْ بِهَا تِلْكَ الْأَفَاتُ كَانَتْ آثَارُهَا عَلَى الْمُجْتَمَعِ مُدْمِرَةً سَيِّئَةً، وَعَلَى كُلِّ فَنٍّ مُصْطَلَحِ الْعَصَبِيَّةِ الْقَبِيلِيَّةِ هُوَ مُصْطَلَحٌ يَدُلُّ عَلَى الْمَوَالَةِ بِشَكْلِ تَامٍ لِلْقَبِيلَةِ أَوْ الْعَائِلَةِ أَوْ الْعَشِيرَةِ وَالْقِيَامِ بِمَنَاصِرَتِهَا سَوَاءً أَكَانَتْ ظَالِمَةً أَوْ مَظْلُومَةً، وَتُعْتَبَرُ الْعَصَبِيَّةُ الْقَبِيلِيَّةُ هِيَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالَّتِي تَنْدَرِجُ تَحْتَ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ وَعَادَةً مَا يَتِمُّ اِطْلَاقُ هَذَا الْمُصْطَلَحِ عَلَى الْعَصَبِيَّةِ الْمُذْهَبِيَّةِ، أَوْ الْعَصَبِيَّةِ الْمُنْطَقِيَّةِ أَوْ الْعَصَبِيَّةِ الطَّائِفِيَّةِ، وَلَا يُمَكِّنُنَا انْكَارُ التَّأثيرَاتِ السَّلْبِيَّةِ عَلَى الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ جَرَاءَ انْتِشَارِ الْأَنْوَاعِ الْمُخْتَلَفَةِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَخَاصَّةُ الْعَصَبِيَّةِ الْقَبِيلِيَّةِ.